أيمن العتوم

خاوِية

روايـة

الإهداء

إلى زينب . . .
لعلّك تجدين في هذه الكلمات بعض العزاء .
وإلى بكر . . .
لعلّك حين تكبر تغادر عالَمك المسحور فتعود إلينا .

(٠)
«ما أسهلَ الحديثَ عن الصّبر عندما لا تكونُ المصيبةُ مصيبَتَك!!»

كان لا بُدّ من الحُزن ؛ الطّريق الطّويلة ليسَتْ محفوفةً بالأمل ، ولا بالورود! لا تُصدّقوا ، كانتْ مليئةً بالشّوك ، والحُفَر ، وكانتْ مُظلمةً ومُخيفةً ، وكانَ على البائسين أنْ يعيشوا كلّ الآلام الفظيعة الّتي تحزّ القلبَ بسكّينٍ صَدِئ ، وكانَ عليهم أنْ يحزنوا وحدهم لأنّ قصصهم الرّهيبة وُلِدَتْ منسيّة!!

لم نكنْ شُجعانًا ؛ لا تُصدّقوا هذه هي الكذبة الأخرى ، كُنّا جُبناءَ ، ووحدَنا . وكانَ علينا أنْ نسير فَسِرنا ، وكانَ علينا أنْ نعبرَ الجسر المُهدّم وعبرناه ، وكانَ علينا أنْ نقضمَ الحجر ونسفّ التّراب ففعلنا . . .!! ولكنْ لماذا رضينا كُلّ ذلك؟! هربًا من الموت؟! بلى . هربًا من الجُنون؟! بلى . هربًا من أنفسنا؟! بلى بلى . كُنّا نهرب من أنفسنا لأنّها أسوأ ما واجهناه في هذه الحرب الطّويلة ، في منتصف الموت تقف الرّوح اليائسة على أقدامها تُنادي عليه أنْ يعجَل ، وتستغيثُ به أنْ يأتي سريعًا .

حكايانا مغموسةٌ بالدّم ، والجوع ، والخوف ، والتّرقّب ، والأمل الكاذب ، والهرب نحو المجهول ، وفي النّهاية لا ندري إنْ كُنّا فقدْنا الحياةَ أم فقدتْنا الحياةُ . بعضُ الموت كان رحمة ، وبعضُ العيش كان انتقامًا شيطانيًا من جهةٍ تعتبرنا أعداءً لها ، ولم نكنْ ندري كيفَ صِرنا أعداءً لكلّ شيءٍ بينَ عشيّة وضُحاها . . .!! ما الّذي تغيّر فينا ، ما الّذي

حملناه على ظُهورنا وقصَمها بهذه الطّريقة المؤذية . . .؟!! لا ندري . . . وحده الله كانَ شاهدًا على كلّ شيء . . . وحده كان يراقب ، وكان يُرسِل بعضَ الإشارات ، وكُنّا أقلّ من أن نفهمها أحيانًا ، وأحيانًا نفهمها لكنْ بعدَ فواتِ الأوان!!

نحن الجَوعَى إلى الحرّيّة ، الجوعَى إلى الكرامة ، الجَوعى إلى الإنسانيّة ، الجَوعَى إلى كلّ شيءٍ مفقودٍ فقده البشر منذُ قرونٍ طويلة ؛ فقدوا الحُبّ ، والسّلام ، والرّحمة ، والعطف ، وفقدوا كلّ شيءٍ حتّى تحوّلوا وتحوّلنا معهم إلى كائناتٍ من ورق تعيشُ في عالم من زَبَد!!

ما الّذي يجمعنا بعدَ كلّ تلك السّنين؟! أسالكمً أنتم ما الّذي يجمعكم؟! وما الّذي يرغّبكم بالحياة؟! لعلّكم ترون الحياةَ ورديّة مُشرقة ، تمتدّ كنهرٍ متدفّق تنمو على ضفّتيه زهور الياسمين؟! أينَ يوجَد هذا النّوع من الحياةِ الّتي تظنّون؟! لقد بحثْنا عنها طَوال رحلتنا من الموتِ إلى الموت فما وجدناها ولا اهتدينا إليها؟! دُلّونا عليها إذا كانتْ موجودة . قولوا لنا إنّها ليستْ في مكانٍ آخَر ، ولا في أحلامِ المُتفائلين ، ولا في قصص الرّوائيّين!! قولوا لنا إنّنا يُمكن أنْ نعيشَها ولو في الآخرة . الآخرة؟! تبدو بعيدةً جداً ، تبدو أنّها ليستْ لنا كذلك!!

أيّها العابِرون بحرَ الأيّام ، لن نحسدكم ، فقط نريدكم أنْ تخبرونا : هل صحيحٌ ما قالوه لنا ذاتَ وجع : إنّ الله لن يجمعَ علينا جهنّمَين!! هل جهنّم في الآخرة أشدّ وطئًا مِن هذه الّتي عشناها في الدّنيا ، أمْ أنّهما مُتشابهتان؟! ماذا ظلّ لنا من عُمرٍ في هذه الفانية ، ونحن أعمارنا منهوبةٌ منذُ رأتْ عُيونُنا النّور ، وأحلامُنا مسروقةٌ مذ جلسَ لصوصُ الأحلام على صدورنا وأذاقونا الويلات .

أينَ الله أيّها المُؤمنون؟! أينَ الله؟! لسنا نشكّ في أنّه موجودٌ ،

لكنّنا نسألكم أنتم ، لو كنتم تؤمنون بوجوده حَقًا لما سقطْنا في حُفَر النّيران!! آه لو أنّكم تدركون أنّه موجود لتخفّفْتم من عِبْء ذَبْحنا في كلّ يوم ، وأن نُقدَّم على موائدكم في كلّ حين ؛ كأنّ دمَنا شرابُ كؤوسكم ، وكأنّ لحمَنا طعامُ أفواهكم .

وكانَ لا بُدّ من الصّبر ؛ ليسَ لأنّنا نُتقنه ، ولا لأنّنا سعَينا نحوه ؛ بل لأنّنا لم نجدْ شيئًا سِواه نتعلّل به ، ولم نجدْ من مهربٍ نحمي به أنفُسنا من الجنون واليأس إلاّ به . في اللّيل حينَ تهمي دموعُ الأمّهات في صمتٍ يتلقّاها وعاء الصّبر فيمتلِئ بها ، ثُمّ تتحوّل إلى ماءٍ زُلالٍ ينزلُ على القلوب بردًا وسلامًا ولو إلى حين .

كم من آهاتٍ شقّتْ سكونَ الليل ، وكم من آلام عبرت حُجُراتِ القلب ، ثمّ طاب لها المُقامُ هناك فلم تُبارِحه!! وكمْ من صرخاتٍ مكتومة انفجرتْ في الأحشاء ولم تجدْ أُذنًا تسمع أو قلبًا يُشارِكها ثِقْلَ المُصيبة!!

الموجوع مثلُ الكأس الملأى المركوزةِ على حرف ؛ أي سببٍ يجعل الكأس تهتزّ سيؤدّي إلى أنْ ينسكبَ منها كلّ ما فيها!! ونحنُ كُنّا كؤوسًا دِهاقًا ، تقفُ الدّمعة في الآماق تنتظر اللّحظة المناسبة ؛ وكلّ لحظة كانتْ مناسبة إلى أنْ تنهمل الدّموع . لقد رقّقتِ البلوى قُلوبَنا ، فصارَ يُبكينا كلّ شيءٍ بسببٍ أو بلا سبب!!

أحيانًا كُنّا نشعر أنّه لولا الفاجعة الّتي عِشناها لما كُنّا سنقترب من أنفسنا هذا الاقتراب ، ولا كُنّا نعرفُ لوجودنا هدفًا على الإطلاق ، ولا أحسسْنا بقيمة الأشياء الصّغيرة الّتي كانتْ تمرّ دون أن نُعيرَها انتباهًا ؛ لقد تأكّد لنا أنّ الفاجعة مثلُ العدسة المُكبّرة تُريكَ النِّعَم الصّغيرة نعَمًا عظيمةً ، لكنّها كانتْ في المُقابِل أيضًا ، تمنحنا مساحةً أكبر للشّعور

بالألم ، لأنّها العدسة المُكبّرة نَفْسُها تفعل فِعلها هذا في النّعمةِ أو في النّقمة على حَدٍّ سواء!!

نتساءل أحيانًا في غمرةِ الوجع : لماذا تفعل الأقدار بنا هذا كلّه؟! لماذا يخلقنا الله ويُعذّبنا؟! لِمَ يرمينا في النّفق المُظلِم ويتركنا نواجه الموتَ والرّعب في كلّ لحظة دون أنْ يتركَ لنا بصيصًا من الأمل على أنّ هناكَ ضوءًا ولو ضئيلاً في نهايةِ هذا النّفق؟! أتعرفون : هذه الأسئلة كانتْ تُطاردنا مطارَدتنا للرّغيف بعد ثلاثة أشهرٍ من الصّوم الإجباري في شهور الزّمهرير في اللّيالي الدّامسة!!

هل كانَ من الممكن أنْ نتخلّصَ من بشريّتنا ، أنْ نموتَ من العطشِ والجوع مثلَ الأشجار وقوفًا ودون أنْ نشعر بكلّ هذه المُحيطات من الألم؟! لكنْ أستميحكم عُذرًا : مَنْ قال إنّ الأشجار تموتُ من الجوع دونَ أنْ تشعر ؛ إنّها ربّما تمتلك من المشاعر والأحاسيس أضعافَ أضعافِ ما يمتلكه بعضُ البشر من الّذين بدّلوا جلودهم ليُصبِحوا مخلوقاتٍ أخرى ؛ لا أقول حيوانات أو وحوشًا ؛ فهذه أيضًا لها نصيبٌ من الشّعور ؛ لكنْ أينَ يُمكن أنْ نجدَ مخلوقاتٍ مُتبلّدة تمامًا على سطح كوكبنا الّذي نتقاسم العيشَ فوقه لنقول إنّها تُشبههم؟!

هل نجدُ في النّهايةِ مخرجًا؟! هل يُمكنُ أنْ نصحو ذاتَ صباح فنجد الآلامَ ذِكرى ، والأوجاع ماضيًا ولّى دونَ عودة ، واليأسَ مُصطلحًا قديمًا حُذِف من المعاجم دونَ أسف؟! هل ينقرض هذا النّوع الوحشيّ من البشر؟! هل يرحمنا التّاريخ فلا يُعيدَ لنا الشّياطين في هيئاتٍ بشريّة؟! لقد بتنا نؤمن أنّ الشّيطان له ظهوراتٌ مثل أيّ نبتةٍ تشقّ تراب الأرض وتظهر على سطحه ، كان هؤلاء الشّياطين يشقّون ثياب البشر ويدخلون إلى أجسادهم وأرواحهم فيُصبحونهم!!

ولكنّها حياة ؛ حياةٌ واحدةٌ . وأعمارُنا؟! قصيرةٌ بالغةُ القِصَر . ونحن؟! هالِكون مثل غيرنا ؛ بالمرض ، بالخوف ، بالاعتياد ، بالجوع ، بالألم ، بموتِ الشّعور . . . ، بأيّ وسيلةٍ من الوسائل في يد القتلةِ الأخفياء . وزمنُ مُكوثنا في مآسينا؟! مثلَ زمنِ مكوثِ الشّعاع العابر قُبّةَ السّماء .

أيّها الموتُ ؛ تهيّأ ؛ لقد أتيناكَ راضين فلا تردّنا خائبين . أيّها الحُزن ؛ تهيّأ ؛ لقد أتيناكَ عرايا فأَلْبِسْنا ثيابَك ؛ سوداءَ أو بيضاءَ لا فرق ؛ فما عاد لونُ الحزنِ يُقلِقنا ، إنّه حزنٌ جميلٌ فحسب ؛ وهل للحُزنِ لونٌ ليفخر به على سائر الألوان ، لطالَما جمعَ الحُزنَ الضّدَّين في الموقف الواحد ؛ إنّه أبيضُ للرّاحل أسودُ للباقي!!

أيّها الجوع اشبعْ بِنا ، خُذنا لُقمةً سائغةً بينَ أشداقك ، فما عُدْنا ندري مَنِ الأكثرُ جوعًا بينكما ؛ أنتَ أم الحرب؟! أمّا أنتَ فتأخذُ من أجسادِنا حتّى لا تُبقي إلاّ على فتيلِ الحياة الذّابلة في أرواحنا ، ثُمّ تُقدّمنا للحرب لكي تطحننا ، كم أنتَ أنانيٌّ أيّها الجُوع ، تأخذُ اللّحمَ ولا ترمي لأختكَ الحربَ إلاّ هيكلاً عظميًا يكسوه جلدٌ رقيق؟! ألم تُدرك أنّه إذا كنتم إخوةً فاقتَسِموا ؛ فلم استأثرتَ بأكثرنا لك ، وتركتَ أقلّنا لسواك!!

أيّتها الحرب ؛ عذرًا إذا أتيناك ضامِرين ، فما كانَ ذلك بأيدينا ، كُنّا نحبّ لكِ ما نُحبّ لأخيك ، لكنّه استأثرَ بنا وما آثرك . أيّتها الحرب اللّعينة ؛ ماذا يعني أن نصبحَ أيتامًا؟! فالنّجومُ يتامى . وماذا يعني أنْ نصبحَ وحيدين؟! فالأشجارُ وحيدة . وماذا يعني أنْ نصبح ثكالى؟! فالبحار ثكلى . وماذا يعني أن نموت؟! فكلّ شيءٍ سيموت ؛ القاتلُ والمقتول . حاملُ السّلاحِ وحاملُ الوردة . الضّحيّة والجَلاّد . زارعُ الزّنبق

وناثر الشّوك . الضّاحك والحزين . اليائس والمُتفائل . الخائف والمُطمئنّ . النّائم والمُستيقظ . الذّاهب والعائد . كلّنا خُبزٌ للموت ذي البطن الّذي لا يشبع ، فيا لَعدالة الموت ؛ يا لَعدالةِ الموتِ المُطلَقة!!

القسم الأوّل

(١)
الله لا ينسَى أحداً ولا يهجرُ مؤمنًا

قال وهو يضمّها من الخلف : «لقد اخترتكِ قلبي ، والقلب لا يكذبُ ولا يخون» . كانتْ لا تزال تقفُ أمام حوضِ الغسيل تجلي الصّحونَ المتناثرة فوقَ الحوض ، مسحتْ بكُمّها جبينَها ، وتخلّصتْ من ذراعَي زوجِها حينَ هزّتْ أكتافَها برفق ، ثُمّ حلّتِ (المريول) عن وسطها ، رمتْه في أحدِ الأدراج ، واستدارت لتواجهه ، نظرتْ في عينَيه عميقًا قبلَ أنْ تسأله بشيءٍ من الضّيق : «لقد كَثُرَ كلامُ النّاس يا جلال» . «لا يهمّني ما يقولون ، كُلّ شيءٍ في أيدينا عطاءٌ منه فلماذا لا يربطون عطاءه إلاّ في هذا الأمر ، أليسَ هذا جهلاً؟!» . «النّاس لا تُؤمن إلاّ بما ترى . . .» تنهّدتْ قبلَ أن تُتابع : «هل أنتَ راضٍ حقًا عن حالنا؟!» . «كلّ الرّضى يا حبيبتي . . . وكُلّ مُنتظَرٍ سيأتي ، اللّهفة لا تقرّب موعودًا ، وتجاهل الأمر لا يُبعِد مكتوبًا ، ما قدّره الله صارَ نافذًا فينا قبل لقائنا الأوّل . . .» . «إنّها السّنة الخامسة يا جلال . . .» تُشيرُ إلى بطنِها وتقول ساخرةً : «وهذا البطنُ لم يكبُر» . فيردّ عليها بحنوّ : «سيكبُر حينَ يريدُ الله له ذلك يا سلوى . . . أنا على يقينٍ يا حبيبتي» . يجلسان على أريكةٍ في غرفةِ الجلوس ، يتابع جلال باسمًا : «ماذا أعددتِ لنا اليومَ من طعامٍ للغداء؟!» . «أووف . . . أنتَ لا تسأل إلاّ عن بطنك . . . أعمال البيتِ كثيرةٌ وأنتَ لا هَمّ لكَ إلاّ الطّعام» . «ألم يقولوا أقصر الطّرق إلى قلبِ الرّجل معدته؟!» . تلتفت إليهِ غاضبةً

متعجّبةً : «إذا كان الطّبيبُ يقول ذلك ، فماذا تنتظرُ من النّاسِ العاديّين؟!» . «الشّيءَ ذاته ؛ ألسنا جميعًا في نظر النّساء ذكورًا مُتسلّطين؟!» . يقف ، يبتسم : «لا عليكِ يا حبيبتي ، أنا أيضًا تعلّمتُ بعضَ الطّبخ أثناءَ دراستي للطّبّ في لندن حينَ كنتُ أسكنُ عَزَبًا أنا وصديقٌ آخَر من دمشق . . . اسمه (عادل) ، كانَ صديقًا وفيًّا بالفعل ، نحيلاً وطويلاً لدرجة أنّ ظهره في الأعلى كان يبدو فيه انحناءةٌ خفيفةٌ بسبب هذا الطّول الفارع ، وكان دائمَ البسمة لم أره ضَجِر من شيءٍ أبدًا ، وأكثرُ ما يُميّزه تلكَ الشّامّة الكبيرة الّتي تستقرّ في الجانب الأيمن من جبينه الوضّاح كأنّها ليلٌ في وسط نهارٍ ، كانَ الأوّل على دُفعتنا ، وكانَ يحبّ العربيّة ، ويحفظ مئاتٍ من أبياتِ الشّعر وخاصّة الشّعر الجاهليّ ، خَدوم ، وعرفتُ لاحقًا بعد أنْ تخرّجْنا أنّ جامعةَ دمشق عيّنتْه أستاذًا ومُعيدًا في كلّيّة الطّبّ ، بالمُقابل كانَ طبّاخًا ماهرًا ، تعلّمتُ منه فنونَ الطّبخ الشّامي . . . أترينَ بعضَ الشّحوم القليلة الّتي تتراكم حول وسطي ؛ ثلاثةُ أرباعها قبل أن نتزوّج ؛ من طبخنا العربيّ المُميّز ، ولولا أنّنا كُنّا نقضي على بعضِ الدّهون بلعبِ كرة القدم في ملاعب الجامعة لكانتْ لي كرشٌ قد استفحلَ أمرُها كثيرًا . . .» يضحك وهو يقفُ على قدمَيه : «أمّا أنتِ فأستاذةٌ في الطّبخ الصّحّيّ ، لا دهون ، ولا زيوت قلي ، والرزّ يُسلَق بالماء ، واللّحم يُشفّى من شحومه ويُطبَخ بالبُخار ، إنّها طريقةٌ تليقُ بأخصّائيّة تغذية مُثابرة ، صحيحٌ أنّني قاومتُ أوّل زواجنا هذا النّوع من الطّبخ ، لكنْ أشهدُ أنّ صبرَكِ عليّ ودأبَك جعلاني أعتادُ عليه ، والآن . . .» . يصمت قليلاً ثُمّ يتابع : «هل أطبخُ أنا أم تطبخينَ أنت؟!» . تلتفتُ إليه مُحنَقَةً : «حينَ تعودُ من عملكَ في الوزارة سيكونُ الطّعامُ جاهزًا» .

عادتْ بها الذّكريات ؛ إلى مدرسة (سُكينة) ، مرّ العُمر سريعًا . . . ما أجملَ الماضي حينَ يكونُ خالِيًا من التّبِعات ؛ كانتْ هُناكَ في أواخر الثّمانينات من القرن الفائت شجرةُ توتٍ عملاقة ترتفعُ في أرضٍ خالِية شرقيّ المدرسة على يسار الطّريق ، حينَ كانتْ (سلوى) تصعدُ من مخيّم الحُسَين باتّجاه المدرسة مع زميلاتها في الصّباح الباكر كانتْ تعرّجُ على الشّجرة ، تتسلّقها هي و(فريال) صديقتها المقرّبة ، وأحيانًا تنضمّ إليهما (غادة) . كانتْ سلوى تجلسُ على جذعٍ غليظٍ في الأعلى ، وهي تُدلّي رجلَيها في الفراغ ، وتفعل (فريال) على جذعٍ مقابلٍ الشيء ذاته ، كانتا تأكلانِ حتّى تشبَعا ، جوعُ اليوم الفائت كانَ ينتهي بمجرّد الجلوس هناك في أعلى الشّجرة لعشر دقائق ، كُنّ يسرقْنها من وقت الاستيقاظ الصّباحيّ لكيْ لا تتأخّرا عن المدرسة ، وحينَ تشبعان ، كانتا تتقاذفان بحبّات التّوت ، وتتسلّيان بقذفه في وجوه الزّميلاتِ الصّاعِدات من قعر المُخيّم كذلك .

تتذكّر لليوم معلّمة الرّياضيّات ، قالتْ للصّفّ مرّة : «أقصر الطّرق بين نُقطَتَين هي الطّريق المُستقيمة» وكانتْ تُردف ذلك بقولها : «أمّا بالنّسبة لكنّ ؛ فالطّريق المستقيمة هي أنْ تعثرْنَ على زوجٍ مُناسبٍ فور تخرّجكنّ من هذه المدرسة!!» . تتذكّر كذلك معلّمة التّربيةً الإسلاميّة كانت دائمًا تردّد : «الله لا ينسَى أحدًا ولا يهجرُ مؤمنًا» . تكرّرها ثلاث مرّاتٍ أو أربعًا ، ثُمّ يعلو همسُ الطّالِبات : «لقد نسيها زوجها بعدَ أنْ هجرها إلى أخرى» . وتتذكّر كذلك معلّمة اللغة العربيّة الّتي كثيرًا ما كانتْ تتفلسف ، فتقول : «المُبتدأ لا بُدّ له من خبرٍ وإلاّ كانت الجملة ناقصة ؛ وكذلك الكون ؛ إذا اعتبرنا الكونَ مبتدأً فلا بُدّ له من خبرٍ ، وخبره يومُ القيامة ، لا بُدّ لكلّ بدايةٍ من نهاية» ، ثُمّ تُتبع ذلك بعبارتها

الشّهيرة الّتي تحاول أنْ تقدّمَ نفسَها حكيمةً من خلالها : «الصّبرُ على البدايات يُفضي إلى نتيجة محمودة في النّهايات . . إيّاكُنّ يا بناتي أنْ تستعجلْنَ النّصيب» . رُبّما اليوم تبقَى هذه العبارة الأكثر علوقًا في الذّاكرة ، لأنّها تُعبّر عن حالة الانتظار السّقيم الّذي تعيشه منذ خمسِ سنوات على الزّواج بفارس الأحلام .

كانَ طبيبًا حديثَ التّخرّج ، متفوّقًا ، أوفدتْه الحكومة الأردنيّة في بعثة إلى بريطانيا ، درسَ الطّبّ في أربع سنوات وعادَ متخصّصًا في الطّبّ الوقائيّ ، وطبّ الأزمات . انتدبتْهَ وزارة الصّحّة فورَ عودته لكي يزورَ بعضَ المدارس ويقدّم بعضَ النّصائح والتّوصيات . وكانتْ مدرسة (سُكَينة) هي إحدى المدارس الّتي زارَها في شهر شباط من العام ١٩٩٦م .

كانتْ (سلوى) ذات العينَين الواسَعَتَين الخرّوبيّتَين تلبسُ معطفًا كُحليًّا أهداهُ لها خالُها الّذي زارهم في الشّتاءِ الماضي بعدَ ثلاثين عامًا عاشَها في ولاية فرجينيا الأمريكيّة حينَ تركَ أباه صانع الأواني النُّحاسيّة وحيدًا في مَعمله ، وهربَ ليعيشَ حياةً أفضلَ من حياةِ البُؤسِ الّتي كانَ يعيشُها . كانتْ سلوى تقفُ ثالثةً في طابورٍ بقي منه سبع أو ثماني طالبات . أصابَها شيءٌ من الملل لطول الانتظار ، فصارتْ تتحدّثُ بصوت مرتفع ، كانَ هذا أوّل جرسٍ في قائمة الإنذار الطّويلة الّتي ستغيّر كيانَ الطّبيبِ الشّابّ ، كانتْ سلوى تترنّم بصوتٍ مخمليٍّ هادئٍ بقصيدة علي محمود طه ، الّتي كانتْ مقرّرةً في المنهاج الدّراسيّ :

أخي جاوزَ الظّالِمون المدى
فحقّ الجهادُ وحقّ الفِدا . . .

أنتـركـهم يغـصِـبـون العـروبةَ
مـجـدَ الأبـوّة والسُّـؤدَدَا!!

ولّما وصلَ إليها الدّور كانتْ لا تزال تترنّم :

(فَـجَـرِّدْ حُـسـامَكَ مِنْ غِـمـده
فليسَ لـه بعـدُ أنْ يُغـمَـدَا)

صعـدَ إليـها بنظره تاركًا التّقـريرَ الّذي كـان يملؤه لزميلتـها الّتي سبقتْها ، كأنّما جرّدتْ عليه حسامها من غِمدِ جَفنَيها ؛ التقتْ عيناهما في منتصفِ المسافة تمامًا في القلب ، تركَ القلم يهوي من بين أصابعه على التّقرير ، طافتْ بخيـاله بنات إنجلترا ، كلّ النّساء اللّواتي مررنَ بحياته الجامعيّة وقفنَ كهياكلَ من كرتون ، وباستعادة أخرى لضوء عينَي هذه الطّالبة كُنّ يحترقْنَ سريعًا ، ويتحوّلْنَ في لَحَظاتٍ إلى رماد . نفضَ رأسَه ليستعيدَ توازنه من هذيان الخيال الّذي أصابَه للتّو ، وفتحَ عينَيه من جديد عليها ، كانَ المعطفُ يكشفُ عن جسدٍ نحيلٍ لكنّه ممشوق ، وطُولٍ بَهِيٍّ لكنّه غير فاحش ، ووجه يميلُ إلى السّمرة لكنّه لامع ، وخَدَّين ممتلِئَين لكنْ دونَ أذى ، وشَعْرٍ أسودَ فاحم معقودٍ إلى الخلف في كعكة دائريّة يظهر طرفها من خلفِ الرّأس . ابتسمتِ الفتاةُ في وجهه ، لم يقلْ هو شيئًا ، تابَع الابتسامةَ من بدايَتها وهي ترتسمُ فتكشفُ عن صَفٍّ مُنتَظَم من اللئالي ، وخَدّين زادا امتلاءً مع اتّساع الابتسامة ، وغمّازتان لوزيّتَان كعيونِ المها عميقتان ، عميقتان بشكلٍ سافرٍ . طلبَ من الممرّضة المُساعدة متعلثمًا : «وزنُها؟!» حالَفه الحظّ من جديدٍ وهي تُديرُ ظهرها إلى الميزان أنْ يراها من زاوية مُختلفة ، مشتْ واثقة ، بدا ذيلُ الكعكة يهتزّ من الخلف . . . ، «٥٨» أجابتْ المُمرّضة ، ابتلعَ ريقَه وهو يُسجّل الرّقم في التّقرير ، طلبَ منها أنْ تكشفَ عن

ساعِدها ، خفقَ قلبُه وهي تفكّ أزرار المعطف ، ثُمّ تثني كُمّ المريول الأخضر رويدًا رويدًا . . . أشاحَ برأسه ؛ لم يستطعْ أنْ يُتابِع النّظرَ إليها ، شيءٌ ما صدّه عن ذلك ، مع أنّ ذلك هو ما فعله مع مئات الطّالِبات من قبل ، نظرَ نظرةَ استِجداءٍ إلى الممرّضة : «أنتِ أعطِها الإبرة» .

في الصّفّ عندما عادتْ ازدادت ابتسامتها اتّساعًا ، غمزتْ صديقتَها (فريال) بدلال ، وقالتْ : «يبدو أنّني أسيرُ في أقصر الطّرق – كما قالتْ معلّمة الرّياضيّات – بِخُطًا واثِقة» . ردّتْ عليها صديقتُها الّتي رأتْ كُلَّ شيءٍ مُحنَقَة : «يبدو أنّ طريقَ الأحلامَ ليسَ قصيرًا كما تظنّين» . أجابتْها : «هل أفهم من ذلك أنّ أعزّ صديقاتي تحسدني على ما حدث معي اليوم ؛ أليسَ من المفترضِ أنْ تفرحَ لفرحي» . «الحلم سرعان ما ينتهي بعدَ الاستِيقاظ» . قالتْ لها فريال ذلك وهي تُعطيها ظهرها .

بعدَ أسبوع من تلك الحادثة ، زارهم الطّبيب جلال مرّةً ثانية ، استبقَ دهشةَ المديرة وأسئلتها بإبراز كِتاب وزارة الصّحّة المُوجّه إليه لإعطاء مطعوم الإنفلونزا الّذي تقدّمه الوزارة مجّانًا لبعضِ المدارس . كانتْ مدرسة (سُكينة) من ضمن مهمّاته ، قالَ لممرّضة المدرسة ، ابدئي لي بصفّ التّوجيهي فالأصغر ، في الممرّ تهامستْ (سلوى) مع (فريال) : «أمعقولٌ أنْ يكون هو؟!» . ردّتْ عليها : «ولا في الأحلام» . في عيادة المدرسة بدا مهيبًا من خلفِ نظّارته المُستطيلة ذات الإطار الأسود ، غمزتْها سلوى قائلةً : «الأحلام تتحقّق سريعًا يا عزيزتي» . ثُمّ ضحِكَتْ بصوتٍ مسموع .

أمسكَ هذه المرّة يَدَها ، بدتْ سمراءَ ناعمةً ، مصقولةً كالرّخام ، ومشدودةً ، مسحَ بالقُطْنِ أعلَى عضدها ، راحَ نفَسُه يتصاعد ، ندّتْ